حتمية العقيدة في الحياة

obeikandl.com

obeikandl.com

حتمية العقيدة
فى الحياة

تحتاج المجتمعات البشرية إلى عناصر أساسية تقوم عليها حياتها ، ويستقيم بها أمرها ، وترتكز عليها عجلة الزمن ، وحركة التاريخ فى دورانها ، فإذا غاب عنصر ما من هذه العناصر اختل التوازن فى المجتمع ، واضطربت أمور المعيشة ، فلا يجد الفرد مأمناً يركن إليه ، ولا مستقبلاً يسعى له ، ولا هوية يُعْرَف بها ، فتنقطع الروابط الاجتماعية ، وتتلاشى الصلات الإنسانية ، فيصبح الأفراد فى المجتمع وحدات مستقلة بعضها عن بعض ، لا يشعر أحد بأى صلة تُقَرِّبه من الآخر ، ولا يحس بأدنى شعور يجذبه إلى أخيه الإنسان فى المجتمع ، الذى يضمهم بين جنباته ، لأن عنصر التوحيد والتجميع قد فُقِد ، فلا أثر له بينهم ، إذ لا وجود له فى حياتهم .

ومن أولى هذه العناصر التى هى عصب الحياة الاجتماعية ، والعمود الفقرى الذى يجمع شتات الأمة ، ويوحد بين أفرادها : **العقيدة** ، فهى أهم العناصر اللازمة فى حياة المجتمعات والأفراد ، إذ حياة الفرد بدون عقيدة أقرب إلى الحيوانية منها إلى الإنسانية ، لأنها تنحصر فيما يملأ البطن ، ويلبى غريزة الجنس ، ولهذا مال الإنسان بفطرته إلى العقيدة ، فآمن بقوة تفوق كل ما يقع تحت حواسه من قوى ، وتعلو فوق كل ما يتصوره خياله من صور تتمتع بالسيطرة والتحكم فيما حولها ، غير أنه عندما حاول تمييز معالمها ، وتحديد أبعادها ، عجز فكره ، وكَلَّ عقله ، فهوى إلى التجسيم الحسى ، والتصور المادى ، الذى قاده إلى عبادة الأوثان والأصنام ، وتقديس كل ما يظن أنه مصدر خير ، رغبة فيه ، أوشر ، اتقاءً له ، سواء كان ذلك ظواهر طبيعية ، أو شكلاً من الأشكال الحيوانية والنباتية ، وأحياناً كتلة من الجماد ، ظن أن بها سرًّا يمكن أن ينال منه خيراً ، أو يتقى به شرًّا .

جاء الأنبياء برسالات السماء ، ليصححوا هذا التخبط ، الذى وقع فيه الإنسان فى رحلة البحث عن المعبود ، ونجحوا — بعد جدال ومحاورة مع أقوامهم — فى تربية الكثير من

معاصريهم تربية دينية ، بحيث أصبح تصورهم للمعبود تصوراً صحيحاً ، وعبادتهم له خالية من شوائب الشرك ، ورواسب الكفر والضلال ، غير أنهم ما لبثوا — بعد رحيل الأنبياء عنهم — أن ضلوا عن الطريق المستقيم ، فدخل الشرك فى عقيدتهم ، وتغلغلت الصور الزائفة فى عبادتهم ، فطمست معالم العقيدة التى بلغها الأنبياء لآبائهم وأجدادهم ، وانمحت صور الإيمان من حياة المجتمع ، فأصبحت العقيدة تصورات شتى عن المعبود : وثنى ومجوسى ، كافر بالله ، ومشرك معه إله غيره ، زنديق وملحد ..... إلى أن جاء محمد ﷺ بالرسالة الخاتمة ، فبين للناس بطلان هذه الصور كلها ، حيث أعلن لهم أن ما يعبدون من أوثان ، يتنافى مع أبسط ما يتصوره عقل ؛ إذ لو أمعن الإنسان النظر فيما يعبد ، لرآه عاجزاً لا يدفع عن نفسه ضرًّا ، ولا يملك لنفسه نفعاً ، وصدق الله إذ يقول على لسان إبراهيم عليه السلام لقومه : ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ ﴾ [الأنبياء : 52]

وضح لنا مما سبق ضرورة العقيدة بالنسبة للمجتمع والأفراد ، وتخبط الإنسان فى البحث عنها ، وتصحيح الأنبياء لما وقعت فيه البشرية فى مجال المعبود والعبادة ، ثم الضلال الذى وقع فيه الإنسان إلى أن جاء محمد ﷺ بخاتم الرسالات ، فواجه كل صور الضلال ، مبيناً ما فيها من فساد ، كما بين إبراهيم عليه السلام لقومه ما هم فيه من ضلال ، حيث كانوا يعبدون أصناماً لا تضر ولا تنفع .

وبعد حوار إبراهيم مع قومه عمد إلى أصنامهم فكسرها ، وحين سألوه عما إذا كان قد فعل بآلهتهم ما يرونه من إهانة وإذلال ، قال فى معرض إجابته لهم : ﴿ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ

لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [الأنبياء : 66 – 67] ، فكان هذا أبلغ حجة فى توجيه الناس إلى التفكير فيما يعبدون ، لأن من شأن المعبود أن يحمى العابد ، فإذا كان عاجزاً عن حماية نفسه ، فهو أشد عجزاً فى مجال حماية من يتوجه إليه بالعبادة .

وفى مجال وقوع الإنسان فى عبادة الظواهر الظواهر الطبيعية يحكى القرآن الكريم حواراً بين إبراهيم عليه السلام وبين قومه ، فيقول : ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [الأنعام : 76 – 79]

وفى معرض المحاورة مع عبدة الأصنام من أهل مكة يقول : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ ﴾ [الحج : 73 – 74]

ويقول : ﴿ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾ ﴾ [الفرقان : 3]

أما من أشرك بالله ، أو رفع إنساناً إلى مرتبة الألوهية ، فقد وجه إليهم حديثه متمثلاً فى خطابه للنصارى ، لأنهم اشتهروا فى هذا الجانب ، فقال تعالى : ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ ﴾ [المائدة : 17]

وقال : ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ ﴾ [المائدة : 73]

ومن هذا يتبين أن القرآن الكريم واجه كل صور الباطل التى شاعت فى المجتمعات البشرية بأسلوب يخاطب العقل ، فيوجهه إلى التفكير فيما يعبد ، فإن كان متغيراً عدل عن عبادته ، لأن المعبود لا يتغير ، وإن كان لا يرد عن نفسه ضرًّا ، ولا يملك لنفسه نفعاً ، فيجب على كل عاقل أن يكف عن عبادته ، لأنه إذا لم يقدم لنفسه نفعاً ، ولا يستطيع أن يدفع عنها ضرًّا ، فكيف لو استغاث به العابد فى محنته ، أو سأله العون فى مسيرته فى الحياة ، فمن المسلم به على سبيل القطع أنه لن يسمع استغاثته ، ولن يتحرك عند طلب معونة منه ، ولهذا يجب على كل عاقل أن يقلع عن التوجه إلى مثل هذا فيعبده ، لأنه لا ينفعه ولا

يضره ، ويتوجه إلى من خلق السموات والأرض ، ومن شق الأرض ، فأنبت فيها النبات الطيب ، ومن هو قريب منه ، يجيب دعوته ، ويدفع عنه ما يؤلمه ، يقول تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾ [البقرة : 186]

فالعقيدة الإسلامية ترتكز على أساس الإيمان بالله ربًّا واحداً ، لا شريك له ، ولا ولد ، ولا والد ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾ ﴾ [الإخلاص: ١ - ٤]

obeikandl.com